

# الفصل الثامن النهر الجفري

١ - تمهيد

لا يسمع المرء ، وهو يستعرض ما قام به المتوكل من اعمال عمرانية في سامراء ، إلا ان ينتهي الى ان المتوكل كان اكثر الخلفاء الذين اقاموا في سامراء طموحاً ، من حيث الرغبة في انجاز المشروعات الكبرى في العاصمة الجديدة ، ولا سيما مشروعات الري التي هي عماد كل توسع عمراني ، فما كان يكاد ينتهي من مشروع إلا ليبدأ بمشروع آخر ، وهكذا نجده مدة حكمه مجدداً في طلب المزيد من هذه الناحية ، مواظباً في السعي على تحقيق فكرته الرامية الى انشاء أجمل وأعظم عاصمة في عالم ذلك الوقت مها بلغت الكلفة أو تضخمتم النفقات . لذلك فان المشاريع التي أقامها أسلافه في سرّ من رأى لم تحقق رغباته المرثومة في مخيلته ، وهي انشاء مدينة جديدة يخترقها نهر واسع تنطلق منه المياه سيحاً فتروي الحدائق الواسعة والمنتزهات الفسيحة وسواقي الاشجار على طول الشوارع ، وتمون برك قصوره بالمياه اللازمة ، فيستطيع ان يوحد جهوده ويجمع كل عمرانه في مكان واحد فلا يحتاج الى ان يقطع المسافة الطويلة بين « سرّ من رأى » ومنطقة القاطول لقضاء أوقات انسه وطربه هناك ، وهي المنطقة الواقعة جنوبي سامراء حيث يتفرع مجرى النهر وان الاسفل من نهر دجلة (١) .

وقد ارتأى المتوكل ان يتجه شمالاً ليحقق هناك خطته التي رسمها في مخيلته حيث تساعد مناسب دجلة المرتفعة على مد النهر المطلوب الى المدينة الجديدة .

(١) حول منطقة القاطول المذكور راجع ما تقدم في صفحة ٢٤٢

ونستطيع ان نتصور مبلغ سرور حين اكتشاف آثار نهر قديم في تلك المنطقة يتفرع من نهر دجلة في نقطة تقع على مسافة حوالي تسعين كيلومتراً من شمالي سامراء وينتهي عند صدر القاطول الاعلى الكسروي جنوبي الدور<sup>(١)</sup>، فقرر في الحال اعادة احيائه وإنشاء مدينة جديدة في منطقة الماحوزة السكائنة على بعد حوالي عشرين كيلومتراً من شمالي سامراء الحالية ، ولا سيما بعد أن أكد الخبراء ان النهر المذكور يضمن اوصول المياه الى هذا الموضع سيجحاً . وبحدثنا التاريخ كيف استجمع المتوكل كل نشاطه واهتمامه لتحقيق انشاء هذه المدينة ونهرها في أقرب وقت ممكن حتى استطاع أن يتمها خلال مدة تقل عن السنتين وسمّاها باسمه « المتوكلية » كما سمي النهر باسمه أيضاً أي « النهر الجعفري » ، ولكن المدينة ومعها النهر كانتا نذير شؤم عليه حيث لم يرض على انتقاله اليها بضعة أشهر حتى قتل فيها فهجرت بعد مقتله<sup>(٢)</sup> .

وفي الوقت الذي كان العمل على إنشاء المدينة جارياً على قدم وساق ، كان العمل على حفر النهر الذي اعتمزم المتوكل على حفره لايصال المياه به الى مدينته الجديدة جارياً أيضاً بنفس السرعة والاهتمام . فيروي لنا الطبري أن المتوكل عهد أمر « النفقة عليه الى دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا بعد ان شرع بالعمل في شهر ذي الحجة من سنة ٢٤٥ هـ . وألقى في حفر النهر اثني عشر الف رجل يعملون فيه » . ويقول اليعقوبي ان كلفة المشروع قدرت بمليون ونصف مليون دينار ، وعلى الرغم من جسامه هذا المبلغ « طاب المتوكل نفساً بذلك ورضي به ، وابتدأ الحفر وأنفقت الأموال الجليلة على ذلك النهر » .

وقد لعب مشروع النهر دوراً خطيراً في هجران المدينة ، مثل دوره في نشوء فكرة الانتقال اليها ، وذلك بسبب فشل هذا المشروع وعجزه عن تأمين اوصول المياه اليها في موسم الصيف كما سنرى .

(١) حول نهر القاطول الكسروي راجع ما تقدم في ص ١٥١ و ٢٠٤

(٢) حول مدينة المتوكلية المذكورة راجع ما تقدم في صفحة ١٢٩

ونستدل مما كتبه بعض المؤرخين ان النهر سمي باسم المتوكل ، أي « النهر الجعفري »<sup>(١)</sup> ، ويرجح ان فشل المشروع كان من جملة الاسباب التي لم تشجع على تخليد اسم النهر وترويض ذكره . فظل مجهولاً بين الناس . ومما يلفت النظر ان البحري، الذي رافق المتوكل طيلة مدة حكمه، ووصف الكثير من مشروعاته، ومن جملة مشروعات انشاء مدينة المتوكلية نفسها، لم يتطرق الى ذكر النهر الجعفري، مع انه كان لهذا النهر علاقة مباشرة بالمتوكلية التي وصفها في اشعاره ، ولعله كان متقصداً في تحاشي ذكره للسبب الذي المعنا اليه نفسه .

وقد بقي اسم هذا النهر مجهولاً فلم يتوصل أحد الى تعيين آثاره حتى قادتني المصادفة ، أثناء قيامي ببعض التحريات عن مشاريع الري القديمة في سامراء ، فاكتشفت ان النهر المعروف اليوم باسم « نهر نايفة » الواقع في تلك المنطقة والذي يتفرع من نهر دجلة في نقطة تقع شمالي مدينة المتوكلية حوالي ستين كيلومتراً ، ذلك النهر الذي اجمع كل من كتب عن هذه المنطقة من أثريين ومهندسين ومؤرخين انه صدر من صدور النهروان العليا ، ما هو إلا جدول المتوكل نفسه دون أي شك . ولا مجال للشك أيضاً بأن هذا النهر مستقل وليست له أية علاقة بالنهروان إلا بشيء واحد وهو ان ذنائبه تعبر من فوق مجرى القاطول الاعلى الكسروي (راجع اللوحة رقم ١) .

## ٢ - منشأ النهر وتاريخه وأهراقه

وقد يكون من المفيد ، قبل أن نبحت في النهر الذي حفره المتوكل، ان نتتبع منشأ المشروع وتاريخه القديم الذي يرجع الى ما قبل عهد المتوكل ، ولكي

(١) راجع كتاب « عيون الانبياء في طبقات الاطباء » تأليف ابن ابي صبيمة الجزء الأول ص (٢٠٧) وكتاب « المكافأة وحسن العقبى » لاحمد بن يوسف الكاتب المعروف بـ « ابن الداية » وقد جاء ذكر النهر فيهما باسم « النهر الجعفري » .

يتسنى لنا أن نتف على ذلك علينا أن نستند أولاً الى الروايات التاريخية، ثم الى الآثار والاطلال المتبقية والمناسيب وغير ذلك من المعلومات التي تهدينا الى حقيقة الوضع . ومن الروايات التاريخية التي تؤيد رجوع المشروع الى ما قبل عهد العرب ما كتبه اليعقوبي في هذا الصدد حيث قال : « وعزم المتوكل أن يبني مدينة ينتقل اليها وتنسب اليه ويكون له بها الذكر فأمر محمد بن موسى المتجم ومن يحضر بابه من المهندسين أن يختاروا موضعاً فوق اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة وقيل له ان المعتصم قد كان على أن يبني مدينة في الموضع الذي يقال له الماحوزة ويحفر نهراً قد كان في الدهر القديم فأعزم على ذلك وابتدأ النظر فيه في سنة خمس واربعين ومائتين ووجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة » . والذي يؤيد صحة وجود هذا النهر في الدهر القديم هو أن المتارب المكورة من الحفریات الأخيرة وضمت على بعد بضعة أمتار عن متارب الضفة الاصلية بحيث يمكن تمييز المتارب القديمة من تلك التي تكوّنت من الحفریات الجديدة . ويلاحظ أيضاً ان هناك عدة مجاري في صدر النهر يستدل منها على ان بعضها يرجع الى عهود قديمة تعود الى ما قبل عهد العرب ، كما أن هناك في بعض أقسام النهر مجاري قديمة موازية للنهر الرئيسي ، وبعض هذه المجاري يتقاطع مع الجرى الرئيسي بحيث يصبح قسم في الجانب الشرقي، والقسم الآخر في الجانب الغربي ، مما يدل على أن هذه المجاري ترجع الى عهد قديم يعود الى ما قبل زمن المتوكل . وعلى هذا نجد ان هناك تسميات مختلفة اطلقت على مختلف أقسام النهر ولا تزال تعرف هذه الاقسام بهذه التسميات ، كتسمية « النهر العتيق » للقسم الأعلى للنهر مثلاً وتسمية « الحفر » أي الحفر الجديد للقسم الآخر ، أما التسمية العامة التي يعرف بها النهر اليوم فهي « نهر فايفه » .

وبالنظر لما تقدم فالتنا ميل الى الاعتقاد بأن منشأ النهر يرجع الى عهد الفرس أو الى ما قبل ذلك، أي الى زمن السكديانيين أو الآشوريين، ثم جاء المتوكل فأعاد حفره .

والفرق الذي نلاحظه بين النهر القديم وبين جدول المتوكل ينحصر في الغاية التي انشئ كل منها من أجلها ، فان الغاية الأساسية التي كان يستهدفها النهر القديم ارواء مساحة كبيرة من المزارع وهذه هي الأراضي السهلة الواقعة على ضفته اليسرى بين « بحيرة الشارع » ونهر دجلة ، أي المنطقة الواسعة المعروفة بـ « حويجة سامراء » والأراضي الزراعية الواقعة على ضفته اليمنى ، بينه وبين نهر دجلة ، على حين ان الغاية من إنشاء جدول المتوكل الذي اتبع نفس اتجاه النهر القديم هي اتصال المياه الى مدينة المتوكل سيجاً بأي ثمن كان وبغض النظر عن مساحة الأراضي الزراعية التي يمكن ارواءها من الجدول . هذا واذا اختلف الاثنان في المرمى الذي يحققانه فانها يتفقان في طريقة تصميم الجدول وذلك من حيث سحب المياه من نهر دجلة الى صدر الجدول ، ففي كلا العهدين ( العهد القديم وعهد المتوكل ) كان الجدول قد صمم على أساس سحب المياه من النهر من دون قناطر أو سد على نهر دجلة لرفع مناسب المياه في النهر في موسم الصيف ، والذي كان يساعد على ذلك هو ان صدر الجدول يقع على مسافة بعيدة من شمالي حدود الداتا ، وبذا كان يسحب المياه من أعالي النهر حيث تكون المناسيب مرتفعة ، ويكون النهر في تلك الاقسام اكثر ثباتاً من حيث تطور المناسيب ومن حيث تحويل المجرى .

ومن الروايات المتواترة ، أن أميرة تسمى باسم نايفة قامت بحفر النهر فسمي باسمها . وتذهب هذه الروايات الى أن الأميرة نايفة هذه كانت بنت الملك هطرون الذي كان له ابنتان : احدهما الأميرة نايفة والثانية تسمى الأميرة فاخرة . ولما قام الملك بتقسيم ملكه على ابنتيه وقعت حصة الأميرة نايفة في القسم الجنوبي الذي يبدأ في جبل حميرن ويمتد الى الجنوب ، أما الأميرة فاخرة فكانت حصتها في شمالي جبل حميرن . وتقول هذه الروايات أيضاً ان اطلال هطرة<sup>(١)</sup> كانت

(١) ان « تلول هطرة » المذكورة تقع على الحدود الشرقية لحاوي البوعجيل الكائن على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، على بعد حوالي اثني عشر كيلو متراً من شمالي الدور ( دور =

مدينة الملك هطرون كما كان التل المعروف بـ « تل مهبجير » الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة أمام قصر الجعفري مكان قصر أخيه مجرون<sup>(١)</sup> . أما مبلغ الصحة في هذه الروايات فلا نستطيع الحكم عليه على أنه قد يصح لنا أن نستدل منها بأن النهر يرجع الى ما قبل العهد العربي .

### ٣ - تخطيط مشروع النهر

يتفرع النهر الجعفري من الضفة اليسرى لنهر دجلة في نقطة تقع على بعد خمسة كيلومترات تقريباً من جنوبي قرية « بيجي » ، وحوالي ٣٨ كيلومتراً من شمالي تكريت و٦٣ كيلومتراً من شمالي صدر القاطول الكسروي الذي يتفرع من نهر دجلة عند الدور ، وذلك من منتهى سفوح سلسلة جبل حميرن التي تقطع مجرى دجلة بالقرب من بيجي فتؤلف هناك مضيق الفتحة المعروف . ويسير الجدول من الشمال الى الجنوب محاذياً الضفة اليسرى لنهر دجلة من جهة الغرب ، وموازيًا المنطقة الجبلية المرتفعة من جهة الشرق ، وبعد ان يقطع مسافة عشرين كيلومتراً تقريباً في هذا الاتجاه ، ينحرف الى الشرق قليلاً فيحاذي سفوح المنطقة المرتفعة ، ممتدداً عن نهر دجلة الى مسافات تتراوح من خمسة كيلومترات الى ستة فيكون أمام تكريت عند الكيلومتر ( ٣٧ ) من الصدر ومقابل الدور ( دور تكريت ) عند الكيلومتر ( ٥٤٥ ) من الصدر ، وبعد ان يجتاز النهر الدور ويسير الى مسافة كيلومتر ونصف كيلومتر في جنوبها يصل الى تل اصطناعي مرتفع

تكريت ) وحوالي ثمانية كيلومترات من جنوبي مدينة تكريت . ولا شك في ان موقع هذه التلول موضع قرية « هاطري » القديمة التي ذكر ياقوت انها « قرية بينها وبين الجعفري الذي عند سامراء ( اي القصر الجعفري الذي في التوكلبة ) ثلاثة فراسخ وهي دون تكريت واسفل منها الدور الأعلى المعروف بالحربة ( أي دور تكريت ) وكان اكثر اهلها اليهود » . وهذا يتفق مع المسافة الحالية بين تلول هطرة واطلال القصر الجعفري .

(٢) حول « تل مهبجير » المذكور راجع ما تقدم في صفحة ٩٠

يقع في وسط الجدول ويسمى « تل البنات » . وتل البنات هذا تل كبير يحوطه الجدول من كل أطرافه، حيث ينقسم الجدول في هذا المكان الى فرعين الفرع الغربي يحيط بالتل من جهة الغرب والفرع الشرقي يحيط به من جهة الشرق ثم يعود الجدول فيتحد من جديد باللقاء الفرعين بعد تحويطهما لموقع التل وجعله بشكل جزيرة يحيط بها النهر من كل جانب .

ونميل الى الاعتقاد بأن التل المذكور من اعمال المتوكل وقد أنشئ في نفس الوقت الذي حفر فيه النهر . والارجح أن الغاية التي أنشئ من أجلها هي نفس الغاية التي كان يستهدفها « تل العليق » الذي أنشأه المتوكل شمال شرقي سامراء لتأمين تفرجه ورجال حاشيته من محل مرتفع على حلبة السباق التي أنشأها هناك<sup>(١)</sup> ، حيث يظهر لنا بأن المتوكل كان ينوي نقل حلبة السباق التي كان قد أنشأها في سامراء الى هذا المكان ، أي الى الساحة الواسعة التي تمتد شرقي النهر الجعفري، وذلك بعد انعام حفر النهر إلا أن الظروف لم تسمح له بتحقيق ذلك<sup>(٢)</sup> . ويوجد فوق التل بناء اقتلع آجره مما يدل على أنه انشئت هناك مقصورات لجوس الخليفة وحاشيته .

وبعد ان يجتاز الجدول « تل البنات » يقترب من نهر دجلة فيصبح على بعد أقل من كيلومترين منه حتى إذا ما سار مسافة ستة كيلومترات من « تل البنات » انتهى الى مجرى القاطول الكسروي عند « قنطرة الرصاصي » الواقعة عند السكيلومتر ( ٧٥٠٠ ) من صدر القاطول المذكور<sup>(٣)</sup> . وهنا يتشعب النهر الى

(١) حول « تل العليق » المذكور راجع ما تقدم في ص ١١٦-١٢٢ ر ص ٢٧٩ و٢٧٦ .

(٢) تذهب الروايات المتواترة الى ان « تل البنات » هذا كان مكان القصر الذي أنشأته الأميرة نايبة لبناتها وهن حوطته بمجرى النهر من كل اطرافه ليكون منزلا عن البر بحيث يتسنى الوصول اليه أو الخروج منه بدون واسطة عبور ، الا ان هذه الرواية هي أقرب الى الاسطورة منها الى الواقع

(٣) حول القنطرة المذكورة راجع ما تقدم في ص ١٥٥ ر ٢٠٥

ثلاثة فروع ، فرعان يبران من فوق القاطول على عبارتين تقع احدهما شمالي « قنطرة الرصاصي » بقليل وتمتد الاخرى فوق قنطرة الرصاصي نفسها ، اما الفرع الثالث فينصب في مجرى القاطول في أقصى الجنوب من جهة الشرق . وكان الفرع الاخير يأخذ المياه الزائدة التي تتجمع في النهر فيصبها في القاطول ، وعلى هذا فقد انشئ ناظم في صدره لتنظيم المياه التي تصرف الى القاطول ، ولا تزال آثار هذا الناظم ماثلة يمكن مشاهدتها في صدر هذا الفرع في المكان الذي يتشعب فيه النهر الى الفروع الثلاثة المذكورة . أما الفرعان اللذان يبران مجرى القاطول فكانا ينتهيان الى حوض انشئ في الضفة اليمنى للقاطول لجمع مياه نهر الجعفري فيه ثم تحويلها الى السواقي التي تنتهي الى مدينة المتوكلية . فهناك فرع يتشعب من الحوض فيمد السواقي التي على جانبي الشارع الاعظم بالمياه ، كما أن هناك فرعاً آخر يتفرع من الحوض أيضاً فيسير غرباً بين سور المتوكلية والقاطول الكسروي ، وبعد أن تتشعب عدة فروع منه توجه نحو مدينة المتوكلية ينتهي الى بركة قصر الجعفري<sup>(١)</sup> . ويتضح مما تقدم أن طول النهر الجعفري بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند بركة قصر الجعفري يبلغ حوالي ٦٣ كيلومتراً ( راجع اللوحة رقم ١ ) .

#### ٤ - صدر النهر ومناخه

النهر أربعة صدور قريبة من بعضها كلها تتفرع من نهر دجلة وليس في أي منها أثر لبناء أو ناظم ، إلا أن وضع مجرى النهر يدل على أن هذه الصدور كانت تمتد الى مسافة غير قليلة الى الشمال الغربي حين كان مجرى نهر دجلة يسير غربي اتجاهه الحالي ، ولما تحولت دجلة الى مجراها الحالي باتجاه الشرق أصبحت

(١) راجع الرسم رقم ٢ ( خارطة حدود مدينة المتوكلية وذوائب النهر الجعفري ) مقابل صفحة ١٣٠ والبحث المتقدم - حول قصر الجعفري في صفحة ١٣٣ ، كذلك البحث التالي الخاص ببركة القصر الجعفري في هذا الفصل .

الصدور الأصلية للجدول في وسط مجرى دجلة فلم تترك لها أي أثر . هذا بدليل أن مجرى الصدر الأخير من الجنوب يسير مسافة خمسين متراً فقط ثم يتصل بمجرى الصدر الثالث الذي يتقدمه شمالاً ، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن المجرى هذا كان يمتد غرباً إلى مسافة أخرى لا تقل عن مائتي متر ، وهذه المسافة أصبحت في وسط نهر دجلة بعد أن تحول مجراه من جهة الغرب إلى الجهة الشرقية ( راجع الرسم رقم ١٥ ) .

والظاهر أن أحدث هذه الصدور هو الصدر الثالث من الجنوب ، وهو صدر المجرى الذي حفره المتوكل ، ويبلغ عرض قعر هذا المجرى حوالي ٢٥ متراً ، ومعدل ارتفاع ضفافه زهاء أربعة أمتار . أما الصدران الآخزان اللذان يتقدمان مجرى المتوكل هذا إلى الشمال فيسير مجريهما بموازاة مجرى المتوكل وأن أطولهما هو الأول الذي يبدأ قعره بنسوب ١٠٧٣٣ متراً فوق سطح البحر فيمتد مسافة حوالي ٥٠٠ كيلومتراً بموازاة مجرى المتوكل ثم ينتهي عنده . ويمتد المجرى الثاني مسافة نصف كيلومتر تقريباً وذلك بين مجرى المتوكل ( المجرى الثالث ) والمجرى الأول من الشمال ثم ينتهي عند المجرى الأول ، ويبلغ منسوب قعر الصدر الثاني هذا ١٠٨٢٢ متراً ، وأما المجرى الرابع الأخير فتصير جدها والأرجح أنه كان صدراً ثانياً لمجرى المتوكل يستعمل في موسم الفيضان . ويبدأ هذا المجرى بنسوب ١٠٩١٠ متراً وبعد أن يسير مسافة خمسين متراً بموازاة مجرى المتوكل من جهة الغرب ينتهي عنده (١) .

(١) إن تمدد الفيضانات في صدور الأنهر القديمة كان أمراً مألوفاً لدى الأقدمين حيث كانوا يصمون جداولهم على أساس جمال فوهتين للجدول أحدهما تستعمل في الشتاء والآخر في الصيف كما كانوا يفتحون جداولهم دون أن يشأوا نواظم يتألف في فوهاتهم ، ومع أنهم كانوا يتكبدون مشقات كثيرة في ضبط فوهات جداولهم في الفيضان إلا أنهم كان لديهم مجال لتبديل مواقع فوهات الجداول بين حين وآخر كما اندرست أحدها ونراكت فيها الأنربة والأحجار مما يحول دون دخول المياه إليها ( راجع ما تقدم في ص ١٤٥-١٤٦ ) .

ويبلغ منسوب قعر صدر جدول المتوكل (الصدر الثالث) ١٠٥ ر٥٦ متراً فوق سطح البحر، وبذلك يكون أوطأ الصدور الأخرى، ولما كان معدل منسوب المياه في نهر دجلة أمام هذا الصدر يبلغ في الوقت الحاضر حوالي ١٠٤ ر٥ متراً في موسم الفيضان وزهاء ١٠٠ متر في موسم الصيف، فإن قعر صدر الجدول يكون أعلى من معدل منسوب مياه فيضان النهر في موقع هذا الصدر حوالي نصف متر فقط وأعلى من معدل منسوب مياه الصيف في نهر دجلة في ذلك المكان زهاء خمسة أمتار. وقد دلت نتائج تدقيقتنا في المنطقة التي يقع فيها صدر الجدول أن مياه دجلة دخلت إلى النهر وسارت فيه إلى مسافة بضعة كيلومترات، وذلك عندما سجلت مياه دجلة أعلى منسوب في شهر شباط من سنة ١٩٤١ حيث ارتفع منسوب مياه الفيضان أمام صدر مجرى المتوكل إلى حوالي ١٠٦ أمتار فوق سطح البحر.

أما ارتفاع قعر صدر الجدول عن منسوب مياه نهر دجلة الحالي، فترجع عوامله أولاً إلى الهبوط القليل الذي حصل في مستوى مياه نهر دجلة في ذلك المكان وذلك بعد تحوّل مجرى دجلة في جنوبي سامراء حوالي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وهو التحول الذي أدى إلى هبوط منسوب مياه النهر هناك إلى ما لا يقل عن تسعة أمتار<sup>(١)</sup>، ثم إلى انطمار الصدر بالآتربة بعد اندراس الجدول. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن جدول المتوكل يقع على بعد حوالي ١٤٠ كيلو متراً من شمالي الموقع الذي حصل فيه تحوّل مجرى دجلة، وإذا كان قد هبط منسوب مياه دجلة في مكان التحول قرب «بلد» حوالي عشرة أمتار فنعتقد أن الهبوط الذي حصل أمام صدر جدول المتوكل بتأثير هذا التحول لم يتجاوز الثلاثة أمتار. وبذلك قد يصح لنا أن نقول إن منسوب

(١) راجع البحث المتقدم الخامس بتحول مجرى دجلة في ص ١٧٠ و ١٨١ و ٢٢٩، والبحث التالي الخاص بالموضوع نفسه في الفصل الحادي عشر.

المياه الصيفية في نهر دجلة كان في الزمن الذي انشئ فيه جداول المتوكل حوالي (١٠٣) أمطار، وعلى هذا الاساس يجوز لنا ان نقول أيضاً ان قعر صدر جدول المتوكل في النقطة التي يتفرع فيها من نهر دجلة كان قد صمم بمنسوب حوالي (١٠٩) متراً، بدليل أن منسوب قعر الجدول الاصلي عند الكيلومتر (٥٦٠٠) من المصدر يبلغ (٩٩٨٠) متراً وهو منسوب أرضية الناظم المنشأ في ذلك المكان لصرف المياه الزائدة الى دجلة؛ هذا اذا اعتبرنا أن عمق الماء في الجدول في موسم الفيض يبلغ حد المترين. كل ذلك يدل على ان صدر جدول المتوكل كان في وقت التسلط ما يمكنه من سحب المياه في أوطأ مناسيب المياه الطبيعية في نهر دجلة دون لزوم انشاء سد على النهر لرفع مستوى المياه فيه. وعليه فإن نجاح مشروع المتوكل كان مضموناً، كما ايد ذلك الخبراء قبل الشروع به وذلك لولا خطأ التقدير في حفريات الجدول الذي ادى الى فشله كما سنرى.

#### ٥ - موقع صدر النهر كما في الطبري وباقوت

وبما قاله الطبري بصدد موقع صدر النهر الجعفري انه يتفرع من نقطة تقع على بعد خمسة فراسخ (أي حوالي ٢٥ كيلومتراً) فوق الماحوزة (المتوكلية) في مكان يقال له «كرمي» وان المتوكل أمر باستملاك هذا المكان ومعه القرى والاراضي المجاورة وذلك لتكون من ضمن أملاك الخليفة التابعة للنهر. واليك ما كتبه في هذا الصدد قال: «وأمر (المتوكل) بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة من موضع يقال له كرمي يكون شرباً لما حولها من فوه النهر اليها وأمر بأخذ جبلتا والخصاصة العليا والسفلى وكرمي وحمل أهلها على بيع منازلهم وارضهم فأجبروا على ذلك حتى تكون الارض والمنارل في تلك القرى كلها له ويخرجهم عنها<sup>(١)</sup>». ولا شك في أن الطبري اخطأ التقدير فيما

(١) الطبري (٣-١٤٣٨)

يختص بموقع صدر النهر من الماحوزة لأن المسافة الحقيقية بين المتوكلية وصدر النهر تبلغ حوالي ٦٣ كيلومتراً كما اسلفنا . غير ان ياقوت وابن عبد الحق كانا قريبين جداً من الواقع في تقديرهما لهذه المسافة حيث ذكرا ان فوهة النهر تقع على مسافة عشرة فراسخ من الجعفري ( حوالي ٥٠ كيلو متراً ) ، وهذه قريبة جداً من المسافة الحقيقية . وقد أضافا الى ذلك قولها ان مكان فوهة النهر كان يعرف باسم « جبة دجلة » . واليك ما كتبه ابن عبد الحق في مادة ( الجعفري ) قال : « الجعفري اسم قصر بناه المتوكل قرب سرّ من رأى بموضع يسمى الماحوزة واستحدث عنده مدينة وانتقل اليها واقطع قواده بها قطائع فصارت اكبر من سرّ من رأى وشق اليها نهراً من دجلة على عشرة فراسخ يعرف بجبة دجلة » .

#### ٦ - فرع الحرير وأهرافر

ويشاهد على الضفة اليسرى للنهر الجعفري فرع كبير يتفرع في نقطة تقع على بعد ( ٣٩ / ١٧٥٠ ) كيلومتراً من الصدر يسمى « نهر الحدّ يد » ، فيمتد هذا الفرع في الاتجاه الجنوبي الشرقي على خط مستقيم ، وبعد أن يقطع حوالي واحد وعشرين كيلومتراً في هذا الاتجاه ينحرف بزاوية قائمة فيسير غرباً على خط مستقيم أيضاً ، وبعد ان يقطع مسافة أحد عشر كيلومتراً تقريباً في الاتجاه الأخير ينتهي في الضفة اليسرى لنهر القاطول السكسروي في نقطة تقع أمام « جامع أبي دلف » الذي في الجانب الأيمن لنهر القاطول<sup>(١)</sup> ، وذلك عند بداية السور الخارجي لمدينة المتوكلية الذي يمتد بين نهر القاطول ودجلة جنوبي المتوكلية<sup>(٢)</sup> .

ويكون هذا الفرع شبه مثلث قائم الزاوية شرقي النهر الجعفري تبلغ

(١) حول « جامع أبي دلف » المذكور راجع ما تقدم في ص ١٣٧-١٤٠

(٢) حول السور المذكور راجع ما تقدم في صفحة ١٢٩

مساحته حوالي مائة كيلومتر مربع (٤٠٠٠٠) مساحة . ولا شك في ان وراء نهبته مثل هذه الساحة واحاطتها بمياه النهر من كل اطرافها مشروع جسم كان ينوي المتوكل انشاء فيها ، والارجح ان المتوكل كان ينوي انشاء حلبة سباق فيها على ان يكون « تل البنات » الموقع المرتفع الذي يشرف منه عليها .

ويلاحظ ان الفرع المذكور هو أشبه بالسور منه الى النهر سيما إذا ما لاحظنا الزاوية القائمة التي يشكها في انحرافه وهي طريقة غير مألوفة في انشاء الانهر ، لذلك فقد اعتبرته اكثر الخرائط سوراً أو جداراً .

ونشاهد على الضفة الشرقية للقطول الكسروي عند نهاية الفرع المذكور آثار بنائتين الاولى تبعد حوالي خمسين متراً من الضفة ويحترقها « فرع الحديد » فيسير من وسطها قبل ان ينتهي الى القاطول والثانية تقع على حافة القاطول تماماً . ونعتقد ان هاتين البنائتين صلة بالسور الخارجي لمدينة المتوكلية وهو السور الواقع على الضفة اليمنى من القاطول حيث يبدأ هذا السور من أمام البنائتين المذكورتين . ومن المحتمل ان « نهر الحديد » كان يعبر فوق القاطول في هذا المكان فيموزن الخندق الذي يسير بموازاة السور شمالاً بالمياه ثم ينتهي الى دجلة عند نهاية السور ، بدليل ان قعر الحديد يعلو عن قعر القاطول عند ملتقاه بالقاطول حوالي خمسة امتار مما يدل على انه كانت هناك عبارة على القاطول تعبر عليها مياه « فرع الحديد » فتجري في الخندق الذي وراء السور ثم تصب في دجلة عند نهاية السور .

أما الغاية التي انشئ من اجلها « فرع الحديد » فمنيل الى الاعتقاد بأن أهم ما كان يستهدفه هذا الفرع هو تكوين حلبة السباق الذي كان ينوي المتوكل انشاءها هناك بالمياه على ان يكون الفرع في الوقت نفسه حداً لساحة السباق من جهة الشرق ، ولعل تسمية الحديد التي يراد بها الاشارة الى الحدود ترجع الى عهد انشاء الفرع ، وقد بقي الفرع محافظاً على تسميته حتى الآن ، ويلاحظ

ان « تل البنات » يقع امام الزاوية القائمة لمثلث الساحة تماماً مما يدل على انه أنشيء لغرض التفرج من فوقه على ساحة السباق التي كانت النية متجهة الى جعلها على شكل مثلث أو مربع . لذلك نجد ان أبعد مسافة على عرض الساحة التي بين النهر الجعفري وفرع الحديد تقع بين « تل البنات » الذي على النهر الجعفري وبين الزاوية التي على « فرع الحديد » حيث تبلغ هذه المسافة حوالي أحد عشر كيلو متراً .

وهناك آثار بنايتين على مجرى الحديد من المحتمل أنها ناظران قاطعان كان يراد بهما حجز المياه ورفع مستواه لتحويلها الى الاراضي المجاورة ، ذلك يدل على انه كانت النية متجهة الى انشاء بساتين وحدائق في السهل المجاور الى فرع نهر الحديد . اما موقعا البنايتين فان الاولى تقع عند السكيلومتر (١٤/٢٥٠) من صدر مجرى الحديد والثانية عند السكيلومتر (٢٥/٧٥٠) من صدره .

ونظراً لأن « فرع الحديد » يسير في أراضي سهلة فان الحفريات الترابية كانت قليلة العمق فيه بحيث اصبح قعره الآن مساوياً تقريباً الى منسوب الاراضي المجاورة مما يجعل تتبع آثار كنفه صعباً في بعض المواقع . وفي مناسب قعر « الحديد » هبوط كبير حيث يبلغ الهبوط في المسافة التي بين الصدر والذنايب عند القاطول وهي ٢٤ كيلومتراً حوالي ١٥ متراً .

ويشاهد على الضفة اليمنى لنهر الجعفري فرع آخر يتفرع من أمام مأخذ فرع الحديد تماماً فيمتد هذا الفرع غرباً في حاوي البوعجيل حتى ينتهي الى دجلة . وتوجد آثار بناء في صدر هذا الفرع مما يدل على انه كان هناك ناظم لضبط المياه التي تدخل اليه ، كما توجد آثار بناء مقابل هذا الناظم على الضفة اليسرى لمجرى النهر الجعفري يسمى مكانه « تل رحيات » ، ويقع هذا البناء في الزاوية التي في نقطة تفرع « نهر الحديد » ، وامله كان قد أنشيء لتحقيق نفس الغاية

التي كان يرمي اليها البناء الذي انشيء في ذنائب فرع الحديد أمام بداية السور الخارجي لمدينة المتوكلية .

وهكذا فقد أصبحت مدينة المتوكلية ومشمولاتها - وهي المدينة التي كان يحلم المتوكل بإنشائها - محاطة بمياه وأسوار خارجية من كل اطرافها . فكان نهر دجلة يحاذيها من جهة الغرب ، أما من الجهات الأخرى فالف فرع حاوي البوعجيل الذي يأخذ المياه من الضفة الغربية لنهر الجعفري ويصب في دجلة ، كان يؤلف الحد الشمالي بين دجلة والنهر الجعفري ثم يليه فرع الحديد الذي يبدأ من النهر الجعفري وينتهي الى دجلة فيحد المدينة من الشرق والجنوب .

### ٧- الفروع الأخرى للنهر

وكانت هناك فروع أخرى تأخذ المياه من الضفة اليمنى للنهر الجعفري فتسقي الحويان ( جمع حاوي وهو السهل الرسوبي على ضفة النهر ) التي على الضفة الشرقية لنهر دجلة<sup>(١)</sup> . ونعيل الى الاعتقاد بأن هذه الفروع فتحتها زراع هذه المنطقة بعد أن هجر نهر المتوكل وصار يستغل في موسم الفيضان لارواء أراضيهم الواطئة التي بين نهر دجلة والنهر الجعفري ، واليك أسماء هذه الفروع بالتسلسل من الشمال الى الجنوب :

اسم الفرع	مكان تفرعه من النهر الجعفري
نهر سمرة	عند الكيلومتر ٤٠٠ر٢٢٢ من المصدر
نهر الربيعة	» » ٢٤ر٥٠٠ »
نهر الخرجة	» » ٣٠ر٥٠٠ »
نهر البوعجيل	» » ٣٩ر٧٥٠ »
نهر الايشان	» » ٥٩ر٣٠٠ »

(١) تمتد هذه الحويان من الشمال الى الجنوب على طول النهر الجعفري بينه وبين دجلة وامازها الحالية بالتسلسل من الشمال الى الجنوب هي: حاوي البوعلي ، حاوي سمرة ، حاوي الربيعة ، حاوي الخرجة ، حاوي رأس السوق ، حاوي تكريت ، حاوي البوعجيل ( راجع اللوحة رقم ١ ) .

## ٨ - التلوث الأثرية على النهر

ويظهر ان أكثر القرى على النهر الجعفري كانت تقع على الضفة اليمنى ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان الاراضي التي على تلك الضفة بين النهر الجعفري ونهر دجلة منخفضة مما يساعد على اروائها سيبحاً من النهر الجعفري. وقد حاولنا أن نتحرى أماكن القرى التي ذكرها الطبري والتي عين مواقعها قرب صدر النهر الجعفري وهي « جبلتا » و « الخصاصة العليا والسفلى » و « كرمى »<sup>(١)</sup> ولكن لم نعث على امكنة هناك تسمى بهذه الاسماء أو ما يقرب منها . وقد رأينا ان ندرج أسماء الاماكن الأثرية التي عثرنا عليها في دراستنا للمنطقة التي يمر منها النهر الجعفري معينين مواقعها بالنسبة الى النهر وهذه الاماكن هي :

اسم التل	الضفة التي يقع عليها بالنسبة الى نهر الجعفري	موقع التل حسب المسافة من صدر النهر
تل هرّو	الضفة اليمنى	٦ / ٥٠٠ كيلومتر
تل الريضة	» »	١١ / ٥٠٠ »
تلا الرمامين	» »	١٦ / ٢٥٠ »
تل خزامية	» »	١٦ / ٥٠٠ »
تل الناعور	» »	٢١ / ٢٥٠ »
تل علوشة	» »	٢٤ / ٢٥٠ »
تل السوق	» »	٣١ / ١٠٠٠ »
تل كنيسة	» »	٢٣ / ٧٥٠ »
تل رحيات	الضفة اليسرى	٣٩ / ٧٥٠ »
تل هطرة	الضفة اليمنى	٤١ / ٥٠٠ »
تل البنات	وسط النهر	٤٦ / ١٠٠٠ »

(١) راجع ما تقدم في صفحة ٣٢٤

## ٩ - هالة النهر وناظم مصرف الوشاش

اما حاله جدول المتوكل فهي جيدة على العموم وذلك عدا التخريبات التي احدثتها السيول في القسم الاعلى من مجراه - وهي السيول المنحدرة من أعالي سلسلة جبل حميرين في جهة الشرق - حيث تقطع هذه السيول الجدول في عدة أماكن ثم تنصب في دجلة في الجانب الغربي للجدول . وأول هذه الأودية من الشمال هو «وادي بزيجحة» الذي يقطع جدول المتوكل عند الكيلومتر (١/٩٠٠) والكيلومتر (١/٨٠٠) من صدره، ثم يليه «وادي الوشاش» الذي يقطع الجدول عند الكيلومتر (٥/٩٠٠) و «وادي الطويل» عند الكيلومتر (١٣/٥٠٠) و «وادي المويلح» عند الكيلومتر (١٨/٥٠٠) و «وادي المجتلة» عند الكيلومتر (٢٣) و «وادي الشرجة» عند الكيلومتر (٢٦/٥٠٠) وكانت مياه هذه الأودية تنصب في الجدول من ضفته الشرقية ، أما المياه الزائدة التي تدخل الى الجدول في موسم الفيضان فكانت هناك مصارف (escapes) تنفرع من الضفة الغربية للجدول فتأخذها الى نهر دجلة الذي يسير بموازاة الجدول في تلك الجهة .

وتوجد في النقطة التي يتقاطع فيها الجدول مع وادي الوشاش آثار بناء قديم على الضفة اليمنى من الجدول ( راجع الرسم رقم ١٥ مقابل الصفحة ٢٢٤ ) يرجح انه كان ناظماً في صدر المصرف الذي يصرف المياه الزائدة في الجدول الى نهر دجلة . ويستدل من آثار البناء المتبقي أن أرضية الناظم مبنية من خرسانة الحصى والنورة والرماد بسلك ١٣ سنتيمتراً تقريباً ، أما جناحا الناظم من الجهتين فمبنيان بالآجر بحجم ( ٣٠ × ٣٠ × ١٠ سنتيمتراً ) . ويبلغ القسم المتبقي من سلك بناء الجناح الابسر للناظم حوالي ٩٥ متراً ومن ارتفاع الجناح فوق الأرضية حوالي ١٠١٠ أمتار . اما منسوب سطح الأرضية فيبلغ

٩٩٨٠ متراً فوق سطح البحر والارجح أن المنسوب المذكور كان منسوب قعر الجدول نفسه في هذا المكان .

ويلاحظ ان قسماً من الضفة اليمنى للجدول قد جرفته مياه نهر دجلة مسافة نصف كيلومتر تقريباً وذلك بين الكيلومتر ( ٨٠٠ / - ) والكيلومتر ( ٣٥٠ / ١ ) من صدر الجدول ، ويظهر أن هذا التآكل حصل بسبب تحول مجرى دجلة الى قرب الضفة الغربية للجدول ، اما الآن فقد رجع النهر الى مجراه القديم غرباً .

### ١٠ - عبارة النهر الجعفري على القاطول السكسروي

ولعل أهم ما كان من منشآت على النهر الجعفري العبارة التي انشئت على القاطول عند قنطرة الرصاصي لعبور مجرى النهر من فوق القاطول . فقد ذهب الكتاب والمؤرخون والمهندسون مذاهب شتى في أمر هذا البناء ، فمنهم من قال انه قنطرة عبور ، ومنهم من تصور انه ناظم انشيه في صدر النهر وان ، وهناك من ظنه سداً حاجزاً لرفع مناسيب المياه في النهر ( ومن بين الفريق الأخير السير ويليم ويلسكوكس الذي لم يتح له دراسة هذا المشروع دراسة وافية ) . اما حقيقة الأمر فهي ان البناء كان بالأصل قنطرة عبور ثم حوّر في زمن المتوكل ليكون عبارة ( Aqueduct ) يمرّ فيها مياه النهر الجعفري من فوق مجرى القاطول ، وقد أضاف الى القنطرة الأصلية ما يلزم من بناء لتحقيق هذه الغاية . ونبحت الآن في أمر هذا البناء من الناحية الفنية في ضوء المعلومات التي حصلنا عليها فيما يختص بتصميم القنطرة ومناسيبها . ولنبحث أولاً في البناء القديم الذي كان يحقق غرض العبور على مجرى القاطول في هذا الموضع ، وهو البناء الذي أنشيه في نفس الوقت الذي أنشيه فيه القاطول السكسروي على عهد كسرى انوشروان .

## أ - قنطرة العبور القرمزية

قلنا بمناسبة ذكر القاطول الكسروي ان القاطول المذكور يسمى نهر الرصاصي ايضاً . اما منشأ هذه التسمية الاخيرة فيرجع على الأرجح الى استعمال الرصاص في بناء هذه القنطرة التي سميت باسم « قنطرة الرصاصي » للسبب نفسه . أما كيفية استعمال الرصاص في البناء فأمر اختلف فيه العلماء والمؤرخون ، فمنهم من قال ان الرصاص استعمل ليحل محل مونة النورة أو مونة الخرسانة في الفجوات التي بين صفوف الآجر أو الحجر وذلك بعد تذيب الرصاص على النار ، ومنهم من تصور أن هناك قيوداً حديدية كانت تربط الاحجار بعضها ببعض ثم يصب الرصاص بينها ، ويلاحظ ان المؤرخين والكتاب الافرنج تفلوا الواحد عن الآخر هذه الآراء على الرغم من بعدها عن الحقيقة كل البعد . أما حقيقة الأمر فهي ان القنطرة الاصلية التي انشئت على عهد كسرى انوشروان بنيت بالاحجار النارية السوداء المعروفة بالاحجار البركانية وهذه ولا شك نقلت من أماكن جبلية والأرجح جبال ايران ، ومن خواص هذا النوع من الحجر الثقل في الوزن والمقاومة في الماء . والظاهر ان قطعاً كبيرة من هذه الاحجار نحتت على شكل مستطيل وليست الواحدة بالآخرى وذلك بقلم نصف سمك الجانبين من كل قطعة لبعدهم ، أي بقلم نصف سمك القسم الاعلى من الجانب الواحد ونصف سمك القسم الاسفل من الجانب الآخر ، وتلبس الحجارة الواحدة بالآخرى من كل جانب على الشكل المبين في الرسم رقم ١٦ . وقد تبق كل جانب في وسط القسم الذي قلع نصف سمكه ، وبعده تلبس الحجر الواحدة بالآخرى ملئت الثقوب الراكبة الواحد على الآخر بالرصاص بحيث ربط الجانب الاعلى من كل قطعة بالجانب الاسفل من القطعة الاخرى أو العكس بالعكس فأصبحت القطعتان متماثلتين مما جعل فصل الواحدة عن الاخرى متعذراً . وكذلك تفتت كل حجارة من وسطها ليتصل الثقب الوسطي بالثقوب التي فوقه وتحتة وهكذا حتى

ثم البناء كله على هذا الشكل . هذا مع العلم بأن هذا الترتيب كان مضافاً الى استعمال المونة الاعتيادية بين الاحجار .

وللرصاص خاصية لا توجد في بقية المعادن فهو ثقيل لا يعتره الصدأ ويمتاز بخصائص القوة الضاغطة ( Compression ) وقد استعمله الاقدمون في منشآت الري منذ أقدم الازمنة . فقد ذكر هيرودوتس وديودورس الصقلي أن سميراميس لما قامت بألشاء جسر ثابت على نهر الفرات في بابل مكنته بالحديد والرصاص ، ذلك يدل على أن طريقة استعمال الرصاص في مثل هذه المنشآت ترجع الى عهود قديمة جداً وأن الفرس اقتبسوها من أسلافهم القدماء<sup>(١)</sup> .

أما الرصاص الذي استعمل في بناء القنطرة التي نحن بصددنا فلم يبق له أي أثر حيث حفر الاهلون الانتقاض إلى حد الأساسات وكسروا قطع الاحجار لاستخراج الرصاص واستعماله أو بيعه ، لذلك لا نجد من الحجر الناري إلا قطعاً صغيرة من بقايا القطع الاصلية التي كسرها الاهلون لاستخراج الرصاص من جوف ثقوبها ، الامر الذي جعل الوقوف على حجم الثقوب الاصلية متمذراً . والارجح ان الثقوب كانت واسعة حيث أن الغاية من انشائها املاؤها بأكبر كمية ممكنة من الرصاص للاستفادة من ثقلها في ترسيخ البناء وتأمين مقاومته للضغوط التحتية .

وكان للفرس خبرة في استعمال الاحجار في مشروعاتهم الانشائية الضخمة ، فهذا مشروع السد الحجري على نهر العظيم والسد الحجري على نهر ديبالي في جبل حمرين<sup>(٢)</sup> وأمثالها من مشاريع الري القديمة في العراق تدلنا على خبرتهم واتقانهم بناء الاحجار . ولا عجب فإن الذين قاموا بهذه المشاريع جبليون تتوفر في جبالهم

(١) حول هذا الجسر راجع كتاب « وادي الفرات » للدؤلف الجزء الثاني ص ١٤

(٢) حول هذين السدين راجع ما تقدم لي صفحة ١٥٩ وصفاة ١٦٢

الاحجار على مختلف انواعها ، وهي المادة الأساسية لمنشآتهم الكبيرة ومشروعاتهم الضخمة .

ونلاحظ من الآثار المتبقية أن بناية القنطرة الأصلية كانت تتألف من ثلاث دعائم وان مجرى النهر كان يمر من تحت القنطرة بفتحتين معقودتين بطاقتين ضخمتين ، كل فتحة بعرض حوالي عشرة امتار . وبلغ مجموع طول هذا البناء الذي يشتمل على الفتحتين والثلاث دعائم تسعة وعشرين متراً ، وقد قلع هذا البناء كله من أساسه لاستخراج الرصاص من أحجاره . وتتفق هذه الأبعاد مع سعة الجدول الذي يبلغ عرضه خمسة وعشرين متراً تقريباً في هذا الموضع . أما قعر الجدول في موضع القنطرة فنسوبه الحالي يبلغ ٧٧ر٤ متراً فوق سطح البحر ، ولعل المنسوب الأصلي للقعر كان أوطأ من ذلك بما لا يقل عن متر ونصف متر ، لذلك فإذا اعتبرنا أن منسوب القعر كان بالأصل ٧٦ متراً فن المحتمل أن مستوى سطح القنطرة كان ٨١ متراً باعتبار أن عمق الماء يبلغ ٢ر٥٠ متراً أو ثلاثة أمتار وارتفاع الطاق مترين .

هذا هو قسم البناء القديم ، أي قنطرة العبور الأصلية التي انشئت على عهد كسرى انوشروان ، وقد ازيل كله لاستخراج الرصاص الذي كان فيه كما اسلفنا . أما التلان المرتفعان على رقبتي القنطرة والمعروفان بتلي قنطرة الرصاصي فالارجح انها انشئت هناك في نفس الوقت الذي انشئت فيه القنطرة الأصلية للدلالة على وجود جسر العبور في هذا المكان أو لعلها كانا نصباً تذكاريًا على رقبتي القنطرة جرياً على العادة المتبعة في انشاء مثل هذه الاعمال العامة .

### ب - عبارة النهر الجعفري فوق القنطرة

أما البناء الاضافي الذي أقيم في زمن المتوكل لتحويل قنطرة العبور الى عبارة تعبر عليها مياه النهر فوق مجرى القاطول فقد انشيء بالآجر ومونة

النورة والرماد . ولدينا أدلة كافية على أن هذا البناء الاضافي أنثي . في الوقت الذي أنثي فيه «النهر الجعفري» إذ نجد ان ناظم المصرف الذي أنثي في صدر النهر أمام وادي الوشاش لتصرف المياه الزائدة الى دجلة مبني من نفس الحجر ونفس المونة حتى ليخال لك أنك بناء هذا الناظم هو نفس بناء العبارة على القاطول لولا تغير المكان الذي يقع فيه . ونستدل من آثار هذا البناء الاضافي ومن مناسيب قعر مجرى الجعفري الذي يعبر فوق نهر القاطول على ان مستوى سطح العبارة، أي منسوب قعر النهر الذي يمر فيها، كان يعلو سطح القنطرة الاصلية خمسة أمتار على الأقل، الأمر الذي حدا بمهندسي المتوكل أن يبنيوا بناء جديداً فوق اعمدة القنطرة القديمة وطاقتين جديدين فوق طاقي القنطرة الاصلية لا يبلغ العبارة الى المنسوب المطلوب . وتدل الآثار الموجودة على أن البناء مدد من جانبي القنطرة لوصول الجدول برقبتي العبارة على ضفتي مجرى القاطول حتى بلغ مجموع طول العبارة حوالي ١٢٠ متراً ، فقد مدد البناء من الجانب الغربي زهاء ( ٥٢ر٥ ) متراً ومن الجانب الشرقي ( ٣٨ر٥ ) متراً . وتدل آثار الدعامات التي لا يزال بعض أساسها ظاهراً على ان البناء الاضافي في الجانب الغربي يتألف من ثلاث فتحات وأربع دعامات منها دعامة واحدة ملاصقة للدعامة الغربية للقنطرة الاصلية لتحمل الطوق فوق الفتحات الجديدة، وأن البناء في الجانب الشرقي يتكون من فتحتين وثلاث دعامات منها دعامة واحدة ملاصقة للدعامة الشرقية للقنطرة الاصلية على نفس الترتيب في الجانب الغربي ( راجع الرسم رقم ١٦ ) .

والارجح ان حوض النهر الذي يمتد فوق العبارة كمي بطبقة من الرصاص للحيلولة دون نفوذ المياه الى داخل البناء .

وقد بنيت العبارة على نمط العبارات التي ترجع هندستها الى العهد العربي ، فهي مؤلفة من طوق راسية ( Pointed arches ) مبنية بالحجر والنورة ، وقد أنشأها العرب انشاءً مثل هذه العبارات على الانهر، ويمكن مشاهدة أحسن نموذج لها قرب محطة سميكة حيث توجد هناك عبارة من هذا النمط كانت تجري فيها

مياه أحد فروع «نهر دجيل» التي تعود الى العهد العربي فوق أحد تشعبات مجرى دجلة القديم . وتسمى هذه العبارة اليوم «قنطرة جويت» وتقع على مسافة قريبة من «الامام محمد أبي الحسن» وهي لا تزال عامرة ولم يندرس منها إلا جوانب الجدول الذي فوقها .

ونميل الى الاعتقاد بأن العبارة انشئت ليس لتعبير مياه «النهر الجعفري» الى الضفة اليمنى من مجرى القاطول حسب وإنما أنشئت على شكل يؤمن استعمالها كجسر لعبور الاهلين والحيوانات أيضاً ، ونعتقد ان «النهر الجعفري» كان يسير في وسط العبارة ، وكان يمران على ضفتي الجدول فوق العبارة لعبور الناس والحيوانات ( راجع الرسم رقم ١٦ ) . والارجح ان العبارة بقيت على وضعها لاستعمالها كجسر عبور فقط بعد أن هجرت المتوكلية وهجر النهر الجعفري معها .

هذا فيما يختص بعبارة الرصاصي ، أما العبارة الاخرى التي كان يعبر فيها الفرع الشمالي للنهر الجعفري فوق القاطول فتقع على بعد حوالي ١٢٠ متراً شمالاً ، ولما كانت هذه العبارة الشمالية صغيرة الحجم بالنسبة الى عبارة قنطرة الرصاصي فلم يبق من آثارها سوى اطلال بناء جناحها الايمن من جهة حوض تجمع المياه الذي يقع أمامها تماماً على الجانب الايمن من القاطول .

### ١١ - بركة القصر الجعفري

والدليل على أن المتوكل كان قد أعار قصره الخاص وهو «القصر الجعفري» عناية خاصة انه جعل النهر الذي حفره الى المتوكلية ينتهي الى ذلك القصر عند البركة التي أنشأها أمامه . ويمكن تتبع آثار النهر في المسافة التي تقع بين العبارة والبركة ( راجع الرسم رقم ٢ مقابل صفحة ١٣٠ ) ، وهذا يبدأ في الحوض الذي في الجانب الايمن للقاطول السكسروي - وهو الحوض الذي انشئ لتتجسر فيه مياه النهر بعد عبورها فوق القاطول على العبارتين

( عبارة قنطرة الرصاصي والعبارة الثانية التي في شمالها ) — ثم يسير في الاتجاه الغربي بمحاذاة القاطول بين ضفة القاطول اليمنى وسور المتوكلية مسافة ٥٥٠ متراً ، وبعد أن يدخل المتوكلية مخترقاً سورها من الزاوية الشمالية المجاورة الى ضفة القاطول يعود فيخرج من الضلع المقابلة في الزاوية نفسها ثم يتجه غرباً نحو البركة الواقعة أمام القصر من جهته الشرقية فيصب فيها . ويتشعب من الضفة اليسرى لنهر في المسافة التي بين الحوض والبركة عدة فروع تخترق سور المتوكلية وتتغلغل داخلها من عدة نواحي .

وتقع البركة في حفرة عميقة محاطة بأطلال القصر الجعفري التي تمتد الى ضفة نهر دجلة من الغرب ، أما شكلها فمستطيل ويبلغ طولها زهاء ١٢٠ متراً وعرضها حوالي ٨٠ متراً ، أي بمساحة عشرة آلاف متر مربع تقريباً ، ويبلغ منسوب قعر البركة الاصيلي ٨١ متراً فوق سطح البحر ، أما المنسوب الحالي فيبلغ ٨٢٫٤٦ متراً أي حوالي متر ونصف المتر أعلى من منسوب القعر الاصيلي . ويتكون عمق هذه الاتربة السطحية من الغرين والدهلة مما يدل على انها تجمعت في قعر البركة من الترسبات التي خلفتها فيها مياه الفيضان المشحونة بالطمي . واصرف المياه الزائدة التي تتجمع في البركة انشئت ثلاثة كهريز نخروج من قعر البركة عند ضلعها الجنوبية وهذه تتوحد بعد مسافة قليلة في كهريز واحد واسع يصب في دجلة ( راجع الرسم رقم ٢ امام صفحة ١٣٠ )

ويظن البعض ان هذه البركة هي البركة المشهورة التي وصفها البحري في اشعاره ، وهذا أبعد ما يمكن تصويره بدليل أن هذه البركة التي في القصر الجعفري لم يدخلها الماء في غير الشهرين شعبان ورمضان من سنة ٥٢٤٧ ( أي بين ١٠ تشرين الاول و ١٠ كانون الاول من سنة ٨٦١ م ) . وقد كان ذلك في موسم الشتاء ، أي في أوائل موسم الفيضان قبيل مقتل المتوكل وهجران المتوكلية ، بحيث لم يكن مجال الانتفاع بها في أي موسم من مواسم الصيف بعد انشائها .

وتدلنا كثرة الاطيان المتراكمة في قعرها انها اهملت بعد دخول المياه اليها بدليل أن مياه الفيضان استمرت تدخل اليها دون أية مراقبة أو سيطرة فخلفت هذه الاطيان الهائلة . اما بركة البحري فقد عينا مكانها على القاطول جنوبي سامراء وهي من دون أي شك جزء من أعمال المتوكل في تلك المنطقة قبل ان ينتقل الى المتوكلية ، وقد بحثنا عن ذلك بصورة مفصلة فيما تقدم (١) . ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى ان تعيين مثل هذه الأماكن التي لا تقوم إلا على مصدر معين يغذيها بالمياه لا يمكن ان يتم إلا بعد دراسة ذلك المصدر دراسة دقيقة وتتبع تطوراته في مختلف ادواره ، أي أن تعيين هذه المواقع يستوجب قبل كل شيء دراسة نظام الري المتبع في عهد ازدهار تلك المواقع ليتسنى الوقوف على حقيقة الامر من مرجعه الاصيل . وهكذا سنقف على حقيقة كثير من الامور التاريخية فيما يختص بمنطقة سامراء العباسية وأماكنها ومشاريعها من خلال دراسة ريبها القديم .

## ١٢ - الشارع الاعظم

سبق أن ذكرنا ان المتوكل فتح شارعاً رئيسياً يمتد بين آخر البناء في الحدود الشمالية لسر من رأى وبين مدينة المتوكلية الجديدة ، وقد سمي هذا الشارع باسم « الشارع الاعظم » . وأهم ما يلفت النظر في أمر هذا الشارع سعة عرضه واستقامة تخطيطه مما يدل على عظمة مشروع مدينة المتوكل الجديدة والابداع في تنسيقها وتخطيطها . وقد كتب البيهقي في هذا الصدد قال : « ومدّ ( المتوكل ) الشارع الاعظم من دار أشناس التي بالسرخ والتي هي صارت للفتح ابن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ الى قصوره ، وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها القارس برحبه ، واقطع الناس بمنة الشارع الأعظم ويسرته وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع وقدر ان يخفر في

(١) راجع البحث الذي قدمه العاصم بركة البحري في الفصل السابع صفحة ٦٠٦ .

جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره « .  
ويمكن تتبع آثار هذا الشارع بين سور أشناس والمتوكلية إذ تحده اطلال  
الابنية القديمة من الجانبين ، اما السواقي الجانبية التي كانت تستمد مياهها من  
« النهر الجعفري » والتي اشار اليها اليعقوبي فتشاهد آثارها على جانبي الشارع  
أيضاً في معظم اقسامه . ويبدأ الشارع من سور أشناس بعرض حوالي خمسين  
متراً فيسير مسافة زهاء كيلومترين شمالاً ثم ينعطف نحو الغرب قليلاً فيسير من  
هنا في اتجاه مستقيم بين نهر دجلة ونهر القاطول الكسروي نحو المتوكلية ،  
وبعد ان يسير حوالي الكيلومتر في هذا الاتجاه يتضاعف عرضه حتى يصبح مائة  
متر ويستمر في نفس الاتجاه حتى اذا ما قطع زهاء ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر  
اعترضه السور الخارجي لمدينة المتوكلية ، وهو السور الذي يمتد عرضاً بين نهر  
القاطول الكسروي ونهر دجلة<sup>(١)</sup> . وهنا نجد آثار بناء الابواب الثلاثة التي وصفها  
اليعقوبي بقوله « انها ابواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه » . وبعد أن  
يجتاز الشارع هذا السور يعود فيصبح عرضه خمسين متراً فيسير بموازاة ضفة نهر  
القاطول الكسروي مسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر ثم ينحرف غرباً حتى يفتحي  
عند الزاوية الجنوبية الشرقية لسور مدينة المتوكلية حيث يقع في هذه الزاوية  
المدخل الرئيسي لأبنية المدينة . ويبلغ مجموع طول الشارع بين سور أشناس  
وسور المدينة الداخلي حوالي اثني عشر كيلومتراً ونصف الكيلومتر ( راجع  
الرسم رقم ١٧ والرسم رقم ٢ مقابل صفحة ١٣٠ ) .

ويشاهد في غربي الشارع قبل دخوله السور الخارجي لمدينة المتوكلية بقليل  
بقايا « جامع أبي دلف » ومئذنته وقد سبق البحث عن هذا الجامع في الفصول  
المتقدمة<sup>(٢)</sup> .

(١) راجع البحث المتقدم عن هذا السور في ص ٥٥-٥٦ و ١٣٠ من هذا الكتاب

(٢) راجع ما تقدم في صفحة ١٣٧

وقد دات اعمال المسح على طول الشارع أن الاراضي التي يقع فيها الشارع تنحدر من الشمال الى الجنوب بهبوط مستمر مما يساعد على جريان المياه في السواقي التي على جانبي الشارع من الشمال الى الجنوب . وقد دلت هذه الاعمال على أن منسوب قعر الحوض الذي على الجانب الأيمن من القاطول الكسروي ، وهو الحوض الذي كانت تتجمع فيه مياه النهر الجعفري ، يبلغ ٦٤ ر ٨٥ متراً فوق سطح البحر . اما الفرع الذي يتفرع من الحوض ويفذي السواقي فيبلغ منسوبه عند الزاوية الجنوبية الشرقية لسور المتوكلية ٢٥ ر ٨٥ متراً ثم يهبط المنسوب في آخر الشارع عند سور أشناس الى حوالي ٧٧ متراً، أي أن منسوب الأراضي التي يقع فيها أول الشارع قرب سور اشناس أوطأ من منسوب قعر النهر في نهاية الشارع عند المتوكلية بحوالي ثمانية أمتار ، وهذا كان يسهل جريان المياه في السواقي على جانبي الشارع حتى سور أشناس . أما المياه الزائدة في هذه السواقي فكانت تصرف الى نهر دجلة جنوبي سور أشناس ( راجع خارطة الشارع الاعظم - مقياس  $\frac{1}{100,000}$  ) .

والكي يستطيع المتوكل المشروع في انشاء المدينة الجديدة وایصال المياه الى أما كن العمل دون ان يضطر الى الانتظار حتى ينتهي من مشروع النهر أما بانشاء كهريز يأخذ المياه من اعالي نهر دجلة ويحملها الى نواحي العمل في المدينة، ويمكن تتبع آثار هذا الكهريز على طول المسافة من صدره حتى مدينة المتوكلية، فهو يبدأ من نهر دجلة بالقرب من « تلول هطرة »<sup>(١)</sup> ، ثم يمتد بموازاة « قناة سامراء » ( قناة المتوكل )<sup>(٢)</sup> فيخترق « الدور » ويتابع سيره الى جانب كهريزي القناة المذكورة حتى اذا ما قطع مسافة حوالي اربعة كيلومترات جنوبي « الدور » وصار أمام « قنطرة الرصاصي » التي على القاطول الكسروي<sup>(٣)</sup> انحرف

(١) حول « تلول هطرة » راجع ما تقدم في صفحة ٣١٨ ( حاشية ١ )

(٢) راجع البحث المتقدم الخاص بـ « قناة المتوكل » في الفصل الخامس ص ٢٧٠-٢٨٤

(٣) حول هذه القنطرة ، راجع ما تقدم في ص ٣٣١-٣٣٦



الى الغرب واتجه نحو مدينة المتوكلية الواقعة على بعد حوالي أربعة كيلومترات من نقطة الانحراف . ويقطع الكهرز في طريقه الاخير « قناة سامراء » قرب انحرافه الى الغرب ، كما انه يقطع القاطول الكسروي عند « قنطرة الرصاصي » . ولا تزال شبكة الكهاريز الفرعية التي تتفرع من الكهرز المذكور ماثلة يمكن مشاهدتها في عدة امكنة داخل مدينة المتوكلية ( راجع اللوحة رقم ١ والرسم رقم ٢ ) . وما يجدر ذكره في هذا الصدد ان المعتصم كان قد انشأ مثل هذا الكهرز في القادسية لايصال مياه الشرب الى مدينته الجديدة التي اعتمزم انشاءها في القادسية قبل ان ينتهي الى سامراء (١) .

### ١٣ - قتل مسرورع النهر الجعفري وعوامد

لقد اختلف المؤرخون في بحثهم عن مصير « النهر الجعفري » وعن العوامل التي أدت الى فشله ، فمنهم من قال ان النهر لم يتم حفره في عهد المتوكل وانه توقف العمل فيه بعد مقتله ، ومنهم من ذكر ان النهر قد تم حفره ، إلا انه خطأ ارتكب في التصميم لم يحقق الغاية المتوخاة فكان جريه ضعيفاً . وكان ياقوت من بين الذين دانوا بالرأي الأول ، فذكر ان المتوكل اشتق نهراً من دجلة « وقدره لدخول الى الحيز ( الماحوزة ) فبات قبل ان يتم وحاول المنتصر تكميمه فلقصر أيامه لم يتمم ثم اختلف الامر بعده فبطل وكان المتوكل اتفق عليه سبعمائة الف دينار (٢) » . وقد أيد الطبري ذلك فذكر أن المتوكل عهد أمر النفقة على النهر الى دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا وقد بوشر العمل في شهر ذي الحجة من سنة ٣٤٥ هـ . وكان دليل لم يزل « يعمل فيه ويحمل المال بعد المال ويقسم عامته في السكتاب حتى قتل المتوكل فبطل النهر وأخرت الجعفرية ونقضت ولم يتم أمر

(١) راجع ما تقدم في ص ٢٦٦ - ٢٦٧

(٢) راجع معجم ياقوت ( مادة - سامراء ) .

النهر» (١). وكذا كان رأي ابن الأثير فقد أيد توقف حفر النهر بمد مقتل المتوكل، وتفسير ذلك أنه لم يتم حفره في عهد المتوكل . واليك نص ما كتبه ابن الأثير في هذا الصدد قال : « في هذه السنة ( سنة ٢٤٥ هـ ) أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرية واقطع القواد واصحابه فيها وجد في بنائها وانفق عليها فيما قيل اكثر من النى الف دينار وجمع فيها القراء فقرأوا وحضرها اصحاب الملاهي فوهب اكثر من النى الف درهم وكان يسميها هو واصحابه المتوكلية وبنوا فيها قصرأ سماه لؤلؤة لم ير مثله في علوه وحفر لها نهراً يسقي ما حولها فقتل المتوكل فبطل حفر النهر وأخربت الجعفرية» (٢).

ومن الذين خالفوا هذا الرأي اليعقوبي ، ومع انه يبين أن النهر لم يتم حفره على الشكل المنتظر فقد أضاف في الوقت نفسه ان المياه جرت فيه في عهد المتوكل جرياً ضعيفاً . وهذا ما كتبه بالنص قال : « قيل ( للمتوكل ) ان المعتصم قد كان على ان يبني مدينة في الموضع الذي يقال له الماحوزة ويحفر نهراً قد كان في النهر القديم فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيه في سنة ٢٤٥ هـ . ووجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة ... إلا أن النهر لم يتم أمره ولم يجر الماء فيه إلا جرياً ضعيفاً لم يكن له اتصال ولا استقامة على انه قد انفق عليه شبيهاً بألف الف دينار » .

#### أ - رواية اصمحر بن يوسف الطائب

ولولا مشيئة الصدف التي قادت احمد بن يوسف الكاتب (٣) الى شرح تفاصيل

(١) الطبري ( ٣ : ٩٤٣٨ )

(٢) ابن الأثير الجزء السابع ص ٥٦

(٣) المعروف بـ « ابن الداية » وكانت وفاته في سنة ٣٤٠ هـ ( راجع كتابه « المكافأة

وحسن العقي » المطبوع في مطبعة الاستقامة والقاهرة سنة ١٩٤٠ وهي النسخة التي

حفظها وترجمها وصححها عماد محمد تارا .

قصة النهر بمناسبة ذكر اخبار يعقوب بن اسحاق الكندي لبقى أمر فشل هذا المشروع سرّاً مجهولاً . وخلاصة القصة هي انه كان يعقوب بن اسحق الكندي عظيم القدر عند الخلفاء العباسيين الذين عاصروهم لما كان له من منزلة علمية جليلة ، وقد اشتهر في اضطلاعهم بعلم الحساب والهندسة وطبائع الاعداد عدا العلوم الاخرى كالفلسفة والمنطق وعلوم النجوم والطب ، ولم يكن ينافسه على الشهرة التي حازها بالنسبة الى علم الهندسة والحساب غير أبي معشر ، وهو جعفر بن محمد البلخي ، والكنه لما دخل في المباراة مع الكندي فشل فاضطر الى العدول الى علم آخر غير علم الهندسة . وقد شاعت الظروف أن تقسح للانانية الشخصية المجال لان تلعب دورها فافبرى شخصان من الحساد المتطفلين هما محمد وأحمد ابنا موسى فدبرا مكيدة للكندي حتى غضب المتوكل عليه فضربه وأخذ محمد واحمد كتبه بأسرها وافرداها في خزانة سميت الكندية ، كما أنها دبرا في الوقت نفسه مكيدة لسند بن علي الذي كان اختصاصياً في علم الهندسة أيضاً فأشخصاه الى بغداد وبعدها عن المتوكل . ويمكن هذا لهما ان يحتكرا الادعاء بعلم الهندسة رغم كونها بعينين كل البعد عن معرفة اصوله وتفرعاته . ولما قرر المتوكل حفر النهر لا يصال المياه به الى مدينته الجديدة - المتوكلية - كان طبيعياً ان يتقدم الى محمد واحمد بحفره ، ولما كانا مفتقرين الى الكفاءة الفنية لانجاز مثل هذا المشروع الجسم اسندا أمره الى احمد بن كثير الفرغاني<sup>(١)</sup> الذي لم يكن أوفر حظاً منها في قابلية النجاح مثل هذا المشروع ، فأرتسكت اغلاط فنية أدت من حيث الأساس الى فشل المشروع حيث لم تدخل المياه الى النهر في غير أوقات الفيضان حين ارتفاع مناسيب مياه دجلة فقط . ولما بلغ امر هذه الاغلاط مسمع المتوكل أحضر سند بن علي من بغداد فصارحه في امر مكيدة محمد واحمد عليه وطلب اليه ان يجري التحري على النهر الذي عهد

(١) هو صاحب كتاب « المدخل الى علم هيئة الاطلاق » يحتوي على جوامع كتاب بطليموس بأغلب لفظ و« بين عبارة » ابن العربي ، طبعة بيروت ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

أمر حفره اليها وان يبين الخطأ الذي ارتكب فيه ليقوم بإعدام محمد وأحمد بعد الاستماع الى شهادته الفنية والتأكد من وقوع الخطأ الذي سبب انفاق الاموال الطائلة من دون جدوى . ولما تحقق لمحمد واحمد ان مصيرها غدا معلقاً على حكم سند في الموضوع لاذن به متوسلين اليه أن يعفو عنها وينقذها من الموت ، فاشتراط سند قبل النظر في الأمر ارجاع مكتبة الكندي فأجيب الى هذا الطلب في الحال ، ثم دبر سند خطة ينقذ بها محمد واحمد من المصير المحتم بعد ان ثبت لديه خطأها ، وهي ان يخبر المتوكل بأنه لم يقم أي خطأ في حفر النهر لأن الخطأ لا ينكشف إلا بعد هبوط مستوى ماء نهر دجلة في الصيف ، ولما كان الموسم موسم فيضان فقدّر المدة التي يسحب فيها النهر المياه من دجلة اربعة اشهر ، اما بعد ذلك فلا بد من ظهور الخطأ بانقطاع المياه عن النهر ، فاذا بقي المتوكل في قيد الحياة اوقع بثلاثتهم وان صدق المنجمون بأنه لم يدم الى هذا الحد افلتوا ثلاثتهم من العقاب . وهكذا فعل سند فخبر المتوكل انه لم يكن هناك خطأ في حفر النهر بدليل جريان المياه فيه ، وكان ان قتل المتوكل بعد شهرين فهجرت المتوكلية ومعهما النهر فنجوا من العقاب .

ولا نكون مبالغين اذا قلنا إن فشل هذا المشروع قد أدى الى نتائج خطيرة بالنسبة الى مركز الامبراطورية العباسية في ذلك العهد ، ولعله كان من أقوى الاسباب التي سمحت المنتصر على ترك مدينة المتوكلية بعد مقتل المتوكل والرجوع الى سامراء ، الأمر الذي أدى اخيراً الى نقل العاصمة الى بغداد .

### ب - نفس رواية اصمحر بن يوسف الطائب

ونظراً لما لهذه الرواية من أهمية تاريخية فيما يختص بمصير « مشروع النهر الجعفري » ونتائجه الخطيرة ارتأينا ضرورة نقلها بكامل نصها ليتسنى للقارئ ان يقف على تفاصيلها كما جاءت في النص الأصلي ، وهذه هي : -

قال ابو جعفر احمد بن يوسف بن ابراهيم في كتاب حسن العقبي حدثني ابو كامل شجاع بن اسلم الحاسب قال كان محمد واحمد ابنا موسى بن شاكر في ايام المتوكل يكيدان كل من ذكر بالتقدم في معرفة فأشخصا سند بن علي الى مدينة السلام وباعداه عن المتوكل ودبرا على الكندي حتى ضربه المتوكل ووجها الى داره فاخذ اكتبه بأسرها وافرداها في خزانه سميت الكندية ومكن هذا لها استهتار المتوكل بالآلات المتحركة<sup>(١)</sup> وتقدم اليها في حفر النهر المعروف بالجمفري فأسندا أمره الى احمد بن كثير الفرغاني الذي عمل المقياس الجديد بمصر وكانت معرفته اوفى من توفيقه لأنه ما تم له عمل قط فغلط في فوهة النهر المعروف بالجمفري وجعلها اخفض من سائر فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائر النهر فدافع محمد واحمد ابنا موسى في امره واقتضاها المتوكل فسعي بها اليه فيه فانفذ مستحثاً في احضار سند بن علي من مدينة السلام فوافي فلما تحقق محمد واحمد ابنا موسى ان سند بن علي قد شخص أيقنا بالهلكة ويئسا من الحياة فدعا المتوكل بسند وقال له ما ترك هذان الرديان شيئاً من سوء القول إلا وقد ذكرتك عندي به وقد اتلفا جملة من مالي في هذا النهر فاخرج اليه حتى تتأمله وتخبرني بالباطل فيه فاني قد آليت على نفسي ان كان الامر على ما وصف لي اني اصلبها على شاطئه وكل هذا بعين محمد واحمد ابني موسى وبمعهم نخرج وهما معه فقال محمد بن موسى لسند يا أبا الطيب أن قدرة الحر تذهب حفيظته<sup>(٢)</sup> وقد فرغنا اليك في انفسنا التي هي انفس اعلاقنا<sup>(٣)</sup> وما ننكر انا أساناً والاعتراف يهدم الاعتراف فتخلصنا كيف شئت قال والله انكما لتعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة ولكن الحق أولى ما اتبع أكان من الجميل ما أتيناها اليه من اخذ كتبه والله لا ذكرتكما بصالحه حتى تردا عليه كتبه فتقدم

(١) الآلات المتحركة : هي آلات رصد النجوم المعروفة بالاصطرلاب .

(٢) الحفيظة : الغضب المكتوم في النفس .

(٣) الاعلاق : الدوائر النفاثس .

محمد بن موسى في حمل الكتب اليه وأخذ خطه باستيفائها فوردت رقعة الكندي بتسامها عن آخرها فقال قد وجب لسكا علي ذمام<sup>(١)</sup> برد كتب هذا الرجل وسكا ذمام بالمعرفة التي لم ترعياها في الخطأ في هذا النهر يستر أربعة اشهر بزيادة دجلة وقد اجمع الحساب علي ان امير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى وانا اخبره الساعة انه لم يقع منكما خطأ في هذا النهر إبقاءً علي ارواحكما فان صدق المنجموم أفلتتا الثلاثة وان كذبوا وجازت مدته حتى تنقص دجلة وتنضب أوقع بنا ثلاثتنا فشكر محم واحمد هذا القول منه واسترقها<sup>(٢)</sup> به ودخل علي المتوكل فقال له ما غلظا وزادت دجلة وجرى الماء في النهر فاستتر حاله وقتل المتوكل بعد شهرين وسلم محمد واحمد بعد شدة الخوف مما توقعما<sup>(٣)</sup>.

### ج - استنساخنا من رواية اصمحر الطائب

نستخلص من رواية « ابن الداية » الأمور المهمة التالية : — ان النهر تم حفره وجرت المياه فيه لمدة شهرين وكان ذلك في موسم الفيضان قبيل مقتل المتوكل مباشرة . ولما كان قد وقع مقتل المتوكل في ٣ شوال ٢٤٧ هـ . فتكون مياه الفيضان قد جرت في النهر خلال شهرين شعبان ورمضان من سنة ٢٤٧ هـ . وهذا ولما كان قد بوشر بحفر النهر في شهر ذي الحجة من سنة ٢٤٥ . وجرت المياه فيه في أوائل شعبان من سنة ٢٤٧ هـ . كما تقدم فتكون المدة التي استغرقها العمل على حفر النهر تسعة عشر شهراً .

وهناك ما يؤيد لنا صحة ما جاء في وصف احمد الكاتب من ان النهر تم

(١) الذمام : الذمة والتعهد والحق

(٢) استرقه : استعبده وجعله رقيقاً كالرقيق

(٣) جاء هذا النص نفسه في كتاب « نبيون الانبياء في طبقات الاطباء » تأليف ابن أبي

صبيمة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ . ( راجع الجزء الاول ، طبعة المطبعة الوهية سنة ١٨٨٢

الميلادية ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ) .

حفرة وجرت فيه مياه الفيضان بدليل ان بركة قصر الجعفري الذي ينتهي «النهر الجعفري» عندها قد تراكت فيها ترسبات الدهاة الى عمق متر ونصف المتر تقريباً كما انضح لنا ذلك من الحفريات التي اجريناها الوقوف على المنسوب الاصلي لقعر البركة . ويستغل الزراع القاطنون في هذه المنطقة خصوبة هذه الترسبات في الوقت الحاضر بزراعة حوض البركة الذي تقع فيه هذه الترسبات ، والغريب ان هؤلاء الزراع يعتقدون بأن التربة الغرينية هذه قد نقلت من حوض نهر دجلة الى هذا المكان في الزمن القديم لانشاء حديقة فيه ، أما حقيقة كون هذه الترسبات قد تراكت في هذا المكان بنتيجة وصول مياه نهر دجلة المشحونة بطمي الفيضان وذلك عن طريق النهر الجعفري الذي يأخذ من نهر دجلة وينتهي هناك فلم نخطر على بالهم .

وتدل نتائج تدقيقاتنا لمناسيب قعر النهر الحالية على ان الوصف الذي جاء في كتاب ابن أبي صيبعة يتفق تماماً مع هذه المناسيب وهو الوصف القائل بأن «فوهة النهر جمعت اخفض من سائر فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائر النهر» . وإذا القينا نظرة عامة الى المقطع الطولي للنهر بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند القاطول الكسروي ( راجع رسم المقطع الطولي للنهر الجعفري بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند القاطول الكسروي ) نجد ان النهر يسير مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من الصدر بأحدار طبيعي معتدل حيث يبلغ معدل الأحدار القعر في هذه المسافة حوالي واحد في الستة آلاف ، وذلك على اعتبار أن قعر النهر في الصدر كان حوالي (١٠١) متراً<sup>(١)</sup> فوق سطح البحر ومنسوب القعر في نهاية مسافة الـ ٢٤ كيلومتراً المذكورة ٩٦ متراً ، ثم يرتفع منسوب القعر بصورة غير اعتيادية حتى يبلغ حده الاعلى عند الكيلومتر ( ٢٧٥٠٠ ) من الصدر فيبلغ هنا ٥٠ ر ٩٨ متراً، أي انه يرتفع مترين ونصف المتر عن منسوب القعر المجاور،

(١) حول مناسيب القعر في صدر النهر راجع البحث الذي تقدم في ص ٣٢١-٣٢٤



فيبلغ في هذا الموضع ٩٩ متراً ، اي انه يرتفع ما يقرب من خمسة أمتار عن منسوب القمر المجاور ، ويستمر في حوالي هذا الارتفاع مسافة كيلومترين تقريباً ثم يعود فيهبط الى منسوبه الاعتيادي وهو يتراوح من ٩٥ الى ٩٩ متراً ، ومن هنا ينحدر النهر بصورة اعتيادية حتى يصل الى القاطول الكسروي فيعبره بمنسوب ٨٩ متراً في القمر . ولما كان تقديرنا لمنسوب القمر في الصدر مئة متر ومتر فوق سطح البحر ومستوى مياه دجلة الصيفية ( ١٠٣ ) أمتار فلم يبق تسلط كاف للمياه الصيفية لاجتياز هذه البقعة التي في قعر النهر والتي تكاد تساوي قعر منسوب الصدر ، زد على ذلك ان العقبة تقع على بعد ٣٥ كيلومتراً من الصدر مما يتطلب ارتفاع اربعة امتار على أقل تقدير لتأمين الانحدار السكاني بين الصدر والعقبة .

ونلاحظ حين ندقق مناسيب نهر دجلة ومستويات الاراضي ان هناك هبوطاً كبيراً بين منسوب مياه نهر دجلة الصيفي في ذلك الوقت وبين مستوى أراضي المتوكلية مما يضمن نجاح المشروع من حيث تأمين ايصال المياه الى المتوكلية سيعاً في أوطاً حالات نهر دجلة في موسم الصيف ، إذ تدل المناسيب على أن الهبوط المذكور يبلغ حوالي ١٧ متراً ، وهذا ضعف ما هو مطلوب لانحدار الجدول في مسافة الـ ٦٥ كيلومتراً التي بين صدره والمتوكلية . لذلك فان سبب فشل المشروع كما يتضح لنا مما تقدم يرجع الى الخطأ الذي ارتكب في تعيين مناسيب الحفرات عند الكيلومتر ( ٢٧٥٠٠ ) والكيلومتر ( ٣٥ ) من صدر النهر خصوصاً في الموضع الاخير الذي يرتفع فيه القمر حوالي اربعة امتار عن المنسوب المطلوب .

وهذا يفسر لنا كيف اقتصر جريان المياه الصيفيه الواطئة على القسم الواقع بين صدر النهر والكيلومتر ( ٢٧٥٠٠ ) أو بين الصدر والكيلومتر ( ٣٥ ) ، حيث صارت تقف عند الموضع الذي يرتفع فيه منسوب القمر ولا تجتازه إلا

إذا ارتفع منسوب مياه دجلة فتجري حينئذ فوق هذا القسم المرتفع ولا يتم ذلك إلا في موسم الفيضان . وينطبق ذلك على ما جاء في رواية « ابن العاوية » ، وهو ان « الفرغاني غلط في فوّهة النهر فجعلها اخفض من سائر فصار ما يغمر الفوّهة لا يغمر سائر النهر » ، كما يتفق مع ما ورد في اليعقوبي من ان النهر لم يكن له « اتصال ولا استقامة » ، أي انه لم يسر في انحدار متناسق وهكذا تختلف مناسيب قعره فتارة ترتفع وتارة تهبط بدون أي اتصال أو استقامة في الجرى .

وقد يتساءل القارى كيف اختلفت هذه الفروق في منسوب قعر النهر عن ملاحظة الفرغاني الذي قام بهندسة النهر وهي واضحة جلية في امكان حتى المرء غير الفني ملاحظتها، ولا سيما وان الارتفاع يبلغ حوالي خمسة امتار فوق المنسوب المطلوب، ويكاد يكون هذا الارتفاع فجائياً من دون ان يتدرج في مسافة طويلة . والجواب على ذلك هو ان العمل على حفر النهر كان جارياً على طول النهر في وقت واحد ، وذلك بعد تقسيم الجرى الى عدة أقسام كل قسم يقوم به عدد من العمال بنسبة كمية الحفريات . ويظهر ان الارتباك في تعيين المناسيب من قبل المهندس المختص في كل من هذه الاقسام أدى الى حدوث هذه الفروق عند اتصال الأقسام بعضها ببعض .

كل هذا يدلنا على أنه لم يكن الفرغاني ولم يكن رفيقاه محمد وأحمد حائرين على الخبرة الفنية السكافية لانجاز مثل هذا المشروع الجسيم ، الأمر الذي أدى الى فشله واخفاق التوكل في تحقيق امنيته . ولا يخفى أن القيام بمثل هذه المشاريع في ذلك الزمن كان يتطلب مهارة فائقة وخبرة شخصية واستعداداً عميقاً وذلك لانعدام الآلات الفنية الدقيقة التي تمكن الخبراء من احضار خرائط وتصاميم المشروع مقدماً ثم تنفيذ هذه التصاميم بعد تدقيقها والتأكد من صحتها .

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى أن الجهود التي بذل في محاولة انجاز هذا المشروع كان عظيماً جداً . أما كمية الحفريات التي أنجزت فعلاً فقد كانت

بدون شك كبيرة بحيث لا تقل عن ستة ملايين متر مكعب على الرغم من أن  
قسماً من هذه الحفريات كان منجزاً قبل حفر المجرى القديم الذي كان موجوداً  
قبل مشروع المتوكل الذي ينطوي على إعادة إحياء النهر القديم . وما يدل على  
صعوبة العمل أن معظم الأراضي التي يمر فيها الجدول متكونة من طبقة صخرية  
من النوع المعروف جيئولوجياً باسم ( Conglomerate ) وهذه مكونة  
من حصى مختلفة الأبعاد وملتصحة عادة لاصقة ويصعب الحفر فيها ، وقد أبد  
اليحقوبي ذلك فذكر أن حفريات الجدول كانت صعبة للغاية حيث قال « كانوا  
يحفرون حصاً وافهاراً لا تعمل فيها المماول » .